رئيف خوري في عالم الانسان والكلمة !

بقلم الدكتور ميشال سليمان

كلما غربت شمس يوم من أيامنا ، تنطفىء في لجّة الزمن نجمة من أنصع مادة وأنبل شعاع . ولكن ضريبة الحسرة والالم ، التي ندفعها من أعصابنا لدى كل مأتم ، ليست سوى النزر اليسير بالقياس الى قيمة الانسان ، الانسان الفرد، الانسان المتفرّد ، الذي منذ ما ينبثُ حبل النور بين موقع قدمه وبين عينه ، تفقد البشرية زهرة من حقلها الأنقى تربة ، والابقى في مدار صيرورتها .

ذاك ، وأيم الحق ، همٌ يجوس خلال أجواء الشعور، ليرتكز حول التخوم التي عاش عندها وحلّق ، شقيق روح ، تتمثل كل رغبتي الآن في أن أحدد له في عالم الرجال ، مقياس قلبه وفكره ، عنيت : كبره .. كبرياءه .

رئيف خوري ... وقد غابت عنا منه سورة اللحم والدم ، فقدنا صوته الاعلى في الاصوات ، ونظرته الانقى في النظرات ، فقد وجوده امكانية تسطير أقل اشارة في دنيا الاشارات المباشرة . واني لعليم بأن قياسه قد يفر على كل أصحاب المقاييس ، حتى ليصح القول بالمحال ، في مجال التقدير ، وهو مجاز .

فمن هو رئيف خوري ؟

وأي دور مثله في عالم البشر ، وفي عالم الحرف ؟

هذا الذي بقي سحابة ثلاثين عاما ، متسنما وقلة قليلة ، ذروة أدبنا العربي، مناضلا في حومة الفكر والبيان، وغايته التأكيد للمبصرين بالبصائر ، وللتاريخ ، على وجوب وجود انسانية القلم في القلم الانسان .

وهل يصح ، في مجال تصويره ، القول بأنه ولد في قرية « نابيه » من أعمال المتن ، سنة ١٩١٢ ، وأدرك اليقين سنة ١٩٦٧ بعدما كتب وخطب ، وألّف وصنف ، واستن للادب نهجا بدعا في المعلمية والصوابية ، والتمرد ، وشرف الوقوف ؟

أم ينبغي التأكيد على انه ذلك الشاعر الناقد ، والاديب البصير ، الشامخ الجبين ، المرهف الكبرياء ، الذي يرى الحياة لغزا في ضمير الناس ، فيشرح ، ثم يشرح ، عندما لا يكون ثمة ما يُشرح، ويكتفي حينا بالايحاء، ويحسب الصمت أحيانا عنصرا من جدليته الخلاقة ؟

كل ذلك حتم وروده ، لتكتمل في الوجدان صورة ذلك الذي كان الاول في أوائل من انقذوا شرف أدبنا الحديث ، فرفع الصوت ضد المجزرة (١) ، بجعله من أطرها مواضيع أدبية ، منبها الى خطرها الجسيم على الانسان في كل مكان ، مؤكدا أولوية وطنه في تحريك الفكر المثار بالنفس الثوري ، لدحر هينمة الجمود في أساليب الوسائل التقليدية المعدة للدفاع عن حقوق الانسان . وكان بذلك ، الرائد الذي حوّل المسألة من صعيد المقال المنهجي ، الى منهج للقول والعمل ، يهدف الى تحقيق انسانية الانسان .

فالانسان ، عند رئيف خوري ، هو « القيمة الاجتماعية العليا ، وهو الغاية القصوى ، لا النظريات ولا الانظمة . فان هذه تشتق قيمتها من الانسان ، وليس يشتق الانسان قيمته منها » . وليس من اليسير تصوير التأثير الضمني والمباشر الذي مارسه رئيف خوري على سلالتنا ، سلالة الادباء العرب الحديثين ، بمجابهته الذعر الظلامي الذي كان ينتقص من دور الانسان ، قيمة وغاية ، فيفعل فعله الاسود في الكثيرين من مثقفي الاربعينات الاولى من القرن العشرين . فقد حمل الرسالة ، وتحمل المسؤولية ، عارفا ، في الآن نفسه ، أين يقف أعداء الفكر وأعداء الثقافة ، وأين يقف ، بالمقابل ، أصحابها وأبناؤها الشرعيون ، وأين يتسلل أولئك الذين كانوا يحاولون التفرد بالتخطيط لعالم الغد ، وبالتالي احتكاره .

وعلى هذا النحو ، وبروح من المسؤولية التامة حيال الادب والفكر ، حيال الانسان ذاته ، عزف رئيف خوري عن جادة اعتبار الادب أشكالا وعبارات تائهة في أطباق معميات البيان اللفظي ، واعتبره مهمة نضالية ـ القلم مسؤول اجتماعي ـ تسمح للمثقف بولوج عالم الانسان الخاص والعام ، وفتح سبيل تجسده بالواقع . فالادب عنده ، انفتاح على الحياة ، الحياة المتحركة المتجددة أبدا ، « تتجدد بأن يموت فيها ما هرم وتفسخ وانحل ، وبأن يثبت فيها ما ولد واقبل على القوة والشباب » .

على ان ذلك لم يكن ليجري ، في حسابه ، وفق ايماء العفوية ، وبمقتضى واقع الحال . فهذا مما يُسقط دور الفكر والادب في عملية تحويل المجتمع ، وواجب الاديب « أن يوجه النـاس الى تغيير الحياة ، التغيير الذي تحتمله ، والذي يكون في الآن نفسه جمالا وخيرا ، لأن الخلق الفني الصحيح ، انسجام بين الخيال والممكن ، وبين الفني الجميل والاخلاقي الخيّر » .

ومن هنا أحب رئيف خوري الحياة . أحب جمالاتها المتنوعة في وحدة وجودها . أحبها حبا مأسويا يضارع

---

(١) كان رئيف خوري من مؤسسي عصبة مكافحة النازية في لبنان .

العبادة ، باعتبارها النافذة التي تشرف منها العين على أبعد من دبيب اللحم والدم . فحقّر الموت ، وسفّه صناعه اللاعبين لعبة الامل الدائم في الاستثمار والاحتكار . وكان لا بد من أن تثقل كاهله جذوة التمرد المأسوي ، التي يعاني منها العالم الذي يفتض أختام تاريخ الناس ، لتهوله في التو ، حدود آفاق الانسان ، وحدود زمنه ، فينبري ، على مثل ايمان المرسلين ، يوقد العزم ، والتفاؤل ، والايمان بقدرة الانسان ، في بناء مجتمع أكثر عدالة ، وأكثر حرية ، وأكثر ضياء ، وبتحويل الالام الشاربة في مياه البهجة من الاعمار ، أفراحا واعراس نماء .

ولم يكن رئيف خوري لينخدع ، في هذا ، بامكانية كون رجال الفكر هم وحدهم القمينون بايجاد معادلة هذا المجتمع ، وذلك التحول . فهو العليم بأن العديد من أهل القلم يعيشون في دوامة القلق ، والتردد ، والانعزال ، والجهل النشيط ، وليس لديهم ، في أحسن احتمال ، سوى خيط دقيق من معرفة بالحقائق الاجتماعية ، فيحاولون القبض على الكائن في الحال ، ولكنهم لا يقبضون بالفعل على غير الماضي . ودلك لانهم يظنون أنفسهم الطاقة الفاعلة ، وهم منها على مثل ما يكون الوهم من حلم .

فالادب ، عند رئيف خوري ، كان معرفة ووسيلة لدفع الانسان الى أبعد من حدوده . ولكي يكون الاديب هذه الطاقة الفاعلة ، ينبغي له أن يكون مدركا ، وان يكون بارادة واعية منه « فيلسوفا » ، ولا سيما اجتماعيا ، يصدر عن فلسفة ، يدرك بها ان الحياة متحركة متجددة ، لا مستنقعة جامدة ، ويدرك اتجاه الحياة في حركتها وتجددها ، ويدرك ان ينبوع القوة في هذه الحركة والتجدد ، انما هو الشعب . فالى الشعب ينبغي له أن يتوجه » .

لقد كان رئيف خوري بعيدا كل البعد عن أولئك الادباء الذين تسكرهم كلماتهم وشعاراتهم التي يطلقون ، لبعدهم عن القدرة التي تجعلهم يرون الناس كما هم ، وتجعلهم في الوقت نفسه ، المسهمين في نضالهم . وكثيرا ما كان يجلدهم بسياط ملحه وطرائفه الجارحة ، مطلقا دائما صيحته المعروفة الداعية الى الحب ، حب الحياة ، وحب الناس ، والى طرح ما يثقل كواهلهم من أنيار وعبادة أصنام . فهو بهذا محطم أيقونات ، ينحاز بثوريته عن سواه من الادباء ، في كونه منهجي التمرد ، صوال التحرك العقلاني ، يعدل الحرية بالحياة ذاتها ، على انها صراع في سبيل الحق ، ولا بد لجميع الناس من خوض غمارها ، شاءوا أم أبوا ، وذلك لكي يصنعوا تاريخهم بارادة جماعية ، ويخططوا لمستقبلهم جوا ملائما تتفتح فيه ابداعات الانسان الواعية .

ومن هذا الشمول في النظر الى الوجود ، والى ظاهراته جميعا ، وأخصها الادب ، كانت آية العبقرية الرئيفية ، المتمثلة في القول بأن « النظر الى وراء جزء من النظر الى أمام » ، كأنما الارث البشري الاسمى المتمثل بالثقافة ، يمتد في يقينه ، عبر الاجيال ، سلسلة متصلة الحلقات ، ولا سبيل الى الاضافة التالية الا بالكشف عن معدن الاولى ، فمعرفة كيفية صهره وصوغه . وهنا يكمن سر شغف رئيف خوري بالتراث الانساني ، والعربي منه بوجه خاص .

لقد أحب رئيف التراث الادبي العربي حبا خالصا منزها عن الاثرة القومية وما يلازمها . وهذا الحب للتراث ، يرى خلاله لآلىء مغمورة بالصدف والخزف ، جعله ينظر الى المؤمل من اسهامه الضخم في بناء حياتنا الجديدة ، فيعمد الى الكشف عن جوانبه الفنية بمضامينها الانسانية والجمالية ، ويعيد درسها على أسس جديدة تستقرىء الحادثة ، وتستنطق منها ما تغلف بغلس التاريخ ، على ضوء مفهوم جديد مفيد ، ورؤية جديدة نفاذة الى أعماق الحياة والانسان والتاريخ جميعا .

ولكن تلك اللآلىء الخبيئة في تراثنا الادبي ، لم تكن لتبهر رئيف خوري ، فيستكين الى بريقها ، ويطمئن الى حاضر هذا التراث . ولهذا ، رأيناه يستحيل ناقدا كبيرا — الناقد الكبير هو الاديب الكبير حسب تعبيره — عميق النظرة ، دقيق الميزان ، قاطعا ، على كل صعيد من صعدان الفكر والادب والاجتماع .

ينقد المجتمع ، فهو يريده عدالة وحبا انسانيا .

وينقد الدولة ، فهو يريدها أداة تسيير شؤون العامة ، لا الخاصة الممتازة .

وينقد الفكر ، فهو يريده فكرا علميا عقلانيا ، محوره

دار الآداب تقدم

المسرح والمرايا

للشاعر ادونيس

الثمن ٦٠٠ ق.ل

صدر حديثا

الانسان ، ومداره اعداده للقيام بعملية تحويل مجتمعه .

وينقد الادب ، فهو يريده عمارات تشمخ على أسس من جمالية تعطي الناس والاشياء معنى بالنسبة الى الانسان ، مع فنية في الاداء ، وتخلق القيم ، وتتبرأ من المدارات المغلقة ، والطرق المسدودة ، ومتاهات الموت والضباب ، وتؤكد مجد الانسان .

اما سبيله الى هذه جميعا ، فأسلوب هو حقا حدث الاشاء العربي ، موصول الاواصر بأنقى ما في تراثنا الادبي . تقراه ، فاذا أنت في ذوق البيان كأنما الجاحظ وسادة القول الاول وراء كلامه . واذا أنت من البلاغة في مثل ما هي في الكائن الحي المعافى ، أبدع وأروع ، لانها الحياة في نموها .

ان من يقرا رئيف خوري ، يحس بالحياة كأنها مخبوءة بين السطور ، ويحس في الحرف رعشة دعوة الى رحلة جديدة ، ويسري حوله ذلك الروح الخفي الذي يحمل في أنفاسه معالم الغد . وفي هذا الجو المسحور ، تنكشف له أعماق نفسه ، فتعتريه حالة من حبور ، كأنه خرج ـ وهو لم يزل ـ من قبضة سلطان ما يعكر عليه عين الشمس .

أما نسغ هذا الاسلوب الرئيفي ، عنيت وشائج الكلم المنتظم عباراته ، فخيط من ذوق رهيف مثير ، ينقلك من حقيقة المجاز الى مجاز الحقيقة ، ملقيا المعاني في الامور المكشوفة بما يتخيل فيها ، مرجعا القليل من الحياة كثيرا في ضمير الارادة ، تاركا الماضي الهرم يتقهقر قارا بما يحلد من وصفه ، جاعلا المؤلم والبشع من الحياة ، يتكشف عن لذاذة يجملها فعل النضال . ومدار ذلك كله ، على ايتاء الفكر جذوة الشفافية ، التي هي في ذاتها ، جذوة نضاحة بعناصر تربتها جميعا . فهذا الفكر خمير طيع ، متكيف ، لا يعرف اليباس ، ولا يبتغي ادراكا مجردا ، ولا صورة على مثاله ، كأنه على يقين ان ليس في الوجود وجود مطلق ، ولا وجود قائم بذاته ، وانما حالات وصور تتحول ، وتتكيف ، بمقدار ما يثور فيها قلق ، أو يعتمل نازع من تباين .

***

قلت :

لقد غابت من رئيف خوري سورة اللحم والدم . فقيل : مل المقام ... ، وقيل : استراح فأراح . والحقيقة ، انه ما غاب ، ولن يصمت ، وما مل ، ولن يخلد الى سلطان سكينة . وها هو ، في كتابه « الادب المسؤول» تنشره « دار الآداب » ، وفي أخوة له تليه ، يحلق بارادة أنوف فوق تخوم الادب العربي ، غارسا في صدور الاجيال الصاعدة ، أغراس حياة أبت ان تجذر في غير تربة الحرية ، ثم شمخت ، فأورقت ، وأثرت فنا يعاف الاطر الحديدية ، وينهل من نبع العطاء الانساني . (*)

ميشال سليمان

(*) مقدمة كتاب « الادب المسؤول » تاليف رئيف خوري ، يصدر هذا الشهر عن « دار الاداب » .

الشيء الذي لا يقال

تهلّل الجراح في أعيننا
ويرقص الانين في الشفاه
ومن سحائب الهجير في قلوبنا ...
ينسكب المطر
. . . . . .
. . . . . .
وتضحك الزهور في حديقة المأساه

***

يا كنزي الاسير
نعمت بالظلام كي أضيء شمعتك
ذبحت ألف عمر عند بابك الضرير
قرأت ألف رقية ورقية للجن والملائكه
صلّيت للاله وابتهلت للشيطان
غطّيت بالخداع كل أعين المجره
. . . . . .
. . . . . .
وها أنا في آخر الزمان ...
أؤثر أن يقتلني الرجاء كل يوم ألف مره ..
ولا أذيع قصّتك

***

قالت لي النجوم
ـ ونحن نفرس الشعاع في بيادر الندم ـ :
« الليل عربيد ثمل
« جراحه ـ مثل جراح الوهم ـ ليست تندمل
« من أجل هذا .. فالظلام منذ كان لم ينم
« لو يأكل الليل النجوم لاستراح »
. . . . . .
. . . . . .
حاولت أن أستوضح المعنى ..
أجابت :
« عندما ينبلج الصباح »

الاسكندرية

محمود العتريس